

# فلسفة المرض وحكمته البليغة وفن التعامل مع الآلم ومعاناة الحياة

والثقوب السوداء ستيفن هوكينغ Stephen Hawking مؤلف كتاب (تاريخ مختصر للوقت) Short History of Time وفلاسفة الإلحاد الأربعة سام هاريس Sam Harris، وريتشارد داوكنز Richard Dawkins، وكريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens، ودانييل دينيت Daniel Dennett للإعلان إنه لا يوجد إله (الله).

بل إن ستيفن هوكينغ صار (قبل وفاته في مارس 2018 عن 76 سنة) يتجراً وينتقد إيمان إسحاق نيوتن وأينشتاين بالله، فمثلاً قوله: «لذا كان أينشتاين مخطئاً عندما قال: "الله لا يلعب النرد" فالنظر في الثقوب السوداء يوحي، ليس فقط إن الله يلعب النرد، ولكنه أحياناً يُربكنا بنثره الثقوب السوداء في أماكن لا يمكن النظر إليها». (راجع: هل يلعب الله النرد؟ Does God Play Dice? 1996)

فوا عجباً لتناول هؤلاء الملاحدة رغم فلسفتهم وعلمهم الناقص، لقد كانت وطأة المرض تلقي ظلالها الثقيلة على هوكينغ الذي أصيب بمرض العصب الحركي Motor Neuron Disease وهو ابن 21 سنة، وقد أعلن الأطباء أنه لن يعيش أكثر من سنتين، ومع ذلك جاهد المرض بعزيمة ورباطة جأش حتى تجاوز عمره الـ 76 عاماً، وهو أمد أطول مما توقعه الأطباء. كان الأولى بـ "هوكينغ" أن يشكر الله على ما أمده بالعمر المديد الذي أتاح له فرصة العطاء في علوم الفيزياء النظرية بدل إلحاده وإنكاره وجود الله (1). بعد حين جعله المرض مقعداً، ولكنه مع ذلك استطاع أن يجاري بل وأن يتفوق على أقرانه من علماء الفيزياء، رغم أن أجسادهم كانت سليمة ويستطيعون أن يكتبوا المعادلات المعقدة ويجروا حساباتهم الطويلة على الورق، بينما كان هوكينغ يجري الحسابات في ذهنه، ويفخر بأنه حظي بذات اللقب وكُرسي الأستاذ الذي حظي به من قبل "السير إسحاق نيوتن"، وصار هوكينغ رمزاً في إرادة

لا حصانة لطبيب ولا لصيدلاني ولا لأحدٍ من البشر (أيًا كان) من المرض والمعاناة والمصائب. الكل له نصيب منها، فلا مندوحة لأحدٍ عن المرض، فكم من طبيب يعاني من أمراض الحساسية، وكم من زعيم وقائد مصاب بالسرطان، وكم من عظيم يعاني آلام الظهر والفقرات والغضاريف، وكم من طفل مشوّه أو مُعاق أو ذي عاهة... وكم وكم. بل قد يموت الطبيب من مرض كان يطببه بنفسه وقد يعيش مريض رغم كل المعطيات والمؤشرات الطبية لموته، كما في رابعة أبي العتاهية:

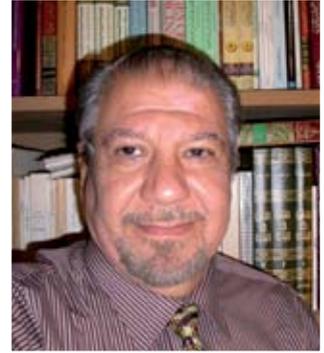
إِنَّ الطَّبِيبَ يَطْبِئُهُ وَدَوَائِهِ  
لَا يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَكْرِهِ أَتَى  
مَا لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الَّذِي  
قَدْ كَانَ يُبْرِئُ جُرْحَهُ فِيمَا مَضَى  
ذَهَبَ المَدَاوِي وَالمَدَاوِي وَالَّذِي

جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنْ اشْتَرَى  
وَلَا يُسْتَنْتَى نَبَاتٍ وَلَا حَيَوَانَ وَلَا حَتَّى جَمَادٍ مِنَ المَرَضِ (1)،  
فكم من أرض بور ومن قيعان موبوءة بالطاعون، وكم من بركة ماء تستفحل فيها الهيضة (مرض الكوليرا)، وكم من بيت جدرانه ملوثة بالبكتيريا الفتالة، وكم من حجارة تكون موطناً للفطريات.

## السؤال المحير المهم

إذن، لماذا خلق الله المرض؟ سؤال لا تجيبه، بل ولا تدرسه معظم (إن لم يكن جميع) كليات الطب في العالم مع أنه سؤال في صميم المهنة، وهو سؤال له عواقب خطيرة في الفكر الإنساني وثقافة الشعوب.

فالبعض أُلحد ورفض وجود الله لأنهم لم يستطيعوا التوفيق بين الله القدير العليم الرحيم وبين المرض والشر والمعاناة في الحياة. عدم الإجابة على هذا السؤال استحثت المتشككين مثل بروفيسور كامبرج الشهير وعالم الكونيات Cosmologist



أ.د. مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشراف على:

معهد تاريخ الطب والعلوم

عند العرب والمسلمين

(www.ihams.org)

لندن



ستيفن هوكينغ

والمحلي والكاستر والآيس كريم) والطعام الطبيعي الطازج في موسمه بدل طعام العلب المحفوظ بالحواظ الصناعية والضارة Fresh food better than canned preserved food

with additives harmful E additives .

11. للسيطرة على الأمراض الجينية والعائلية Genetic diseases control عند ظهور حالات جينية في زواج الأقارب. وتأتي هنا الحكمة النبوية في الحديث المعجز (اغتربوا حتى لا تضنوا) أي تزوجوا الأغراب لمنع الضعف في الذرية.

12. لاستشارة الطبيب مبكراً فقد يكون الألم أو قلة الشهية أو الغثيان والاستقراغ (Nausea and Vomiting) حافزاً لاكتشاف مرض كالسرطان في بدايته وعلاجه أسهل في باكورته قبل أن يستشري في النهاية ويصبح داءً عضالاً. والملاحظ أن مرضى الغرب يراجعون الطبيب في باكورة المرض بسبب التقديف الصحي والرؤية الفلسفية بأن الحياة الدنيا هي كل شيء هناك، بينما الشرقيون يراجعون متأخرين غير عابئين ولا خائفين من الموت والهلاك كونهم ملاقوا ربهم فلا يفرق الموت معهم، خلافاً للنصيحة النبوية الرائعة: (يا عباد الله تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا له دواء إلا السام - أي الموت).

13. اقتصادياً، فإن المرض هو سبب للراحة الوظيفية بأخذ إجازات المرض (Sick leave) المطولة والمتجددة وبراتب كامل. وإذا تسبب المرض بعجز وظيفي يكون سبباً لعلاوة العجز (Disability benefit) خصوصاً في الغرب وتؤهل العاجز بالتقاعد المبكر على أساس مرضي (Early retirement on ill basis).

14. المرض محطة للتفكير والتدبر ومراجعة النفس قبل الموت، والمريض يصبح حكيمًا بعد المرض ويتعظ قبل الموت فيبدأ يأخذ الأمور بلا تشنج لعلاج التوتر العصبي Stress ويبدأ باتخاذ قرارات خطيرة في تقسيم أملاكه وتركته وهو حي يرزق. ثم إن المرض العضال خصوصاً السرطان هو فرصة للتأمل والتفكير ملياً في تحقيق الأمناني المحرومة (Bucket list or wish list of the dying patients) فيجد طاقاته لتحقيقها قبل الموت وفوات الأوان. هناك أغنياء مصابون بأمراض المعدة أو القولون المستعصية والميتة عملوا وصاياهم قبل الموت بالتبرع بممتلكاتهم وأموالهم لمستشفيات ولجمعيات خيرية.

15. المرض فرصة لتأمل المريض وهو على فراش الموت لإعادة النظر في أوليات الحياة فكثير من الغربيين تحول لدين الإسلام، كما في حالة المغني العالمي كات ستيفنز (Cat

A man's got to know his حدوده أن يعرف الإنسان أن يعرف حدوده (limitations).

3. لمعرفة مواضع الوباء فلا يرتاد أحد أماكن العدوى لأجل العزل الطبي quarantine principle ، وسيرد الإعجاز النبوي الفريد في الحديث النبوي: (إذا حل الوباء (الطاعون) بارض فلا تدخلوا فيها ولا تخرجوا منها فراراً منه) أي من الوباء أو الطاعون.

4. للرزق والعيش والتكسب المهني الطبي للأطباء والجراحين والمحللين والصيدالاة والمرضين والقابلات.

5. لتوازن أعداد البشر ولادةً وموتاً. فالأمراض الفتاكة والحوادث القاتلة تعيد كفة الميزان لنصابه مع كفة المواليد.

6. لتنشيط جهاز المناعة ضد المرض Strengthening defence mechanisms against diseases بتكوين الأجسام المضادة.

7. لتجديد الأنسجة في العضو المصاب بعملية اندمال الجرح وتعويض الميت والقديم منها بنسيج نشط جديد.

8. صارت أعمار البشر أطول من الأعمار بالماضي بسبب التقدم بعلاج الأمراض وعلوم الغذاء. ولعل معدل أعمار اليابانيين هي الأطول في العالم (80 سنة) لولعهم الشديد بأكل السمك النيء منه والمطبوخ. بينما معدل أعمار الأفارقة هي الأقصر في العالم لانتشار الأمراض المعدية واستشراء العنف.

9. للتعليم الذاتي وكيفية الوقاية والعلاج من الأمراض بمعاشيتها self-education فلا تعرف الألم وسوء الهضم والقحة والإسهال diarrhoea Pain, dyspepsia, cough and إلا بأن تعيشها وتتعلم الوقاية منها. ولا تعرف الأنفلونزا مهما تكلمنا عنها إلا بالإصابة بها، فتأخذ العبرة بالابتعاد والتحصين مما يفضي إليها. كذلك التسمم بالطعام الشعبي بسبب المايونيز (بيض نبيء تحت الشمس يُستحسن تجنبه في الصيف والمناطق الحارة) أو بسبب التلوث أثناء الطهي كما في دلهي (الهند Delhi belly وكذلك في بغداد Baghdad belly) أو حبة بغداد (العراق Baghdad boil).

10. للتأقلم للطعام الجديد بالبهريز أو الحمية (حكمة القدماء: المعدة بيت الداء والحمية نصف الدواء، والنصيحة العربية: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) وأكل ما هو مناسب للمعدة لتساعده على الشفاء (فيمتنع عن أكل التوابل والفلفل والمخلل والحوامض والمقلي) ويبدأ يأكل مشتقات الألبان (كاللبن الخائر غير الحامض، والجبن،

تحدي الإعاقاة والمرضى الذي دام حوالي 55 عاماً. مع تطور مرضه، وبسبب إجرائه عملية للقصبه الهوائية بسبب التهاب القصبه، أصبح هوكينغ غير قادر على النطق أو تحريك ذراعه أو قدمه، أي أصبح غير قادر على الحركة تماماً، فقامت شركة إنتل الأمريكية في "سيليكون فالي" بكاليفورنيا (Intel Corporation in Santa Clara, California, in the Silicon Valley) للمعالجات والنظم الرقمية بتطوير نظام حاسوب خاص متصل بكرسيه يستطيع هوكينغ من خلاله التحكم بحركة كرسيه والتخاطب باستخدام صوت مولد إلكتروني وإصدار الأوامر عن طريق حركة عينيه ورأسه، حيث يقوم بإخراج بيانات مخزنة مسبقاً في الجهاز تمثل كلمات وأوامر. ورغم أن الكنيسة لم تكن يوماً جزءاً من حياة هوكينغ، ورغم أن زوجته الأولى الكاثوليكية تركته لإلحاده، إلا أن العائلة قررت إقامة مراسم دفنه بالكنيسة تحاشياً لانتقاده ولعنته بعد موته. كان هناك 500 مدعوا لجنازة ستيفن هوكينغ (أقيمت في 31 مارس 2018) في سانت ماري الكنيسة الكبرى في كامبريدج (إنجلترا). ورغم إلحاد هوكينغ، فإن أولاده لوسي وروبرت وليم اختاروا هذه الكنيسة المرموقة لتوديعه. وأصدر أولاده بياناً يبررو فيه ذلك: "إن حياة والدنا وعملنا يعنيان أشياء كثيرة لكثير من الناس، المتدينين وغير المتدينين على حد سواء. لذا، فإن الخدمة ستكون شاملة وتقليدية على حد سواء، مما يعكس اتساع وتنوع حياته". وجهزت عائلة هوكينغ وجبات عيد الفصح المجانية لثلاثة أيام في عطلة نهاية الأسبوع للمشردين في كنيسة ويسلي الميثودية في كامبريدج يوم جنازته. واحرقت جثته في 15/6/2018 وطُمر الرماد في مقبرة ويست-منستر بلندن London's Westminster Abbey قرب بقايا العالم الشهير إسحاق نيوتن.

### حكمة المرض البليغة

ويمكن الآن تصنيف الحكم البليغة من وراء المرض تحت عنوانين كبيرين: الحكمة الطبية والحكمة الشرعية.

#### الحكمة الطبية (البحثة):

ولعل الابتداء بالأسباب الطبية يتلاءم هنا ليرضي شريحة المتشككين والمحمدين بالله لإثبات الحكمة بالدليل المادي الدنيوي (قبل الديني وإن كان كلاهما مرتبطان بالإرادة الإلهية):

1. لتقدم الطب والجراحة والقبالة والتحليل الطبية المخبرية والصيدلة لأمراض لا عهد لهم بعلاجها من قبل، كمرض السكري واكتشاف الأنسولين لعلاجها، وعلاج الحميات والأمراض المعدية باكتشاف البنسلين، وللعلاج المتطور ضد الفيروسات والميكروبات والطفيليات المختلفة: ولقد صدق الله تعالى بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فلقد صار مرض السفلس والتدرن الرئوي والجذري والكوليرا والطاعون وشلل الأطفال أمراضاً من الماضي السحيق بسبب اكتشاف اللقاحات ومضادات الحياة.

2. لتبيين ضعف الإنسان المُكَبَّر وتفاهته حيث أن أسط الكائنات مثل الفيروس والبكتيريا والطفيلي يسببون الأمراض التي تجعل الإنسان مُنهكاً ضعيفاً كرادع له ليتأدب ويتواضع ويعرف حدوده. وما أطف عبارة الممثل العالمي كلينت إيستوود (Clint Eastwood نهاية الفيلم (Magnum Force 1973) بمقولته الشهيرة:



اللَّهُ تعالى كلها منطوية على الحكمة التامة، وقد يدرك العباد أو بعضهم شيئاً من هذه الحكمة، وقد تعجز عقولهم القاصرة عن إدراكها، ولذلك كان مبنى الدين على الإيمان بالغيب، وإثبات كل أنواع الكمال المطلق لله تعالى، ونفي كل أنواع التقص عنه سبحانه. وعليه... فما من شيء خلقه الله تعالى وإن كان في وجوده شر نسبي إلا ومصالحة وجوده أعظم من مفسدها، وهذا الجزء من الشر لا ينسب لله تعالى ولكن ينسب إلى مخلوقاته، وإنما ينسب له تعالى الحكمة من خلقه. يقول ابن القيم في شفاء العليل: (فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط، بل فعله كله حسن وخير وحكمة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُكَ الْخَيْرَ﴾ (آل عمران: 26). وقال أعرف الخلق به صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك. فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه).

وقال ابن عثيمين: (اللَّهُ خلق كل شيء الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه، لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فالشر ليس في فعل الله، بل في مفعولاته أي مخلوقاته ومخلوقات الله تنقسم إلى 3 أقسام هي:

- 1 - شر محض كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها، فهي خير.
- 2 - خير محض، كالجنة والرسول والملائكة.
- 3 - فيه شر وخير، كالإنس والجن والحيوان). (فتاوى ابن عثيمين).
4. بالمرض يظهر المرء أنواع التعبد، فإن لله على القلوب أنواعاً من العبودية، كالخشية والتواضع. المرض ينزل بالمسلم من الضّر والشّدائد ما يلجئه إلى المخاوف، حتى يلجئه إلى التوحيد، وتعلق قلبه بربه وحده، فيدعوه مخلصاً له الدين. يروى أنه لما أصيب عروة بن الزبير بالأكلة في رجله (غرغرينا Gangrene likely to be diabetic) قال: (اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن أبليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبليت، ثم نظر إلى رجله في الطست بعدما قطعت فقال: إن الله يعلم أنني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم).
- اعتل الفضل بن سهل وزير المأمون يوماً ولما سُفي جلس للناس فهنّوه فقال: «إن في العلل نعماً ينبغي للعقل أن يعلمها. تمحيص للذنب وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار للنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد الخيار».
5. استحثاث الدعاء: روى الإمام أحمد وابن ماجه عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر).
6. قاعدة العزل وأن نعالج قدر الله بقدر الله: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام حتى إذا كان بسرع لقيه أهل الأجناد (أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه)، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعوتهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا: فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقیة الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم له،

الطريق وسرق منه القصيدة ثم قتله):

فالجوه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسودّ  
ضدان لما استجمعا حسناً والصدّ يظهر حسنه الضدّ  
يقول ابن تيمية في منهاج السنة النبوية: (خلق أحد الضدين بناءً على خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض الذي يحصل به ذلّ العبد لربه، ودعاؤه، وتوبته من ذنوبه، وتكفيره خطاياها، ويرقّ به قلبه، ويذهب عنه الكبرياء، والعظمة، والعدوان، يُضادّ خلق الصحة التي لا يحصل معها هذه المصالح).

2. ثم شكر الله وحمده عند معافاته مما ابتلى به غيره كما في المقولة المشهورة (الحمد لله الذي عافنا مما ابتلى به غيرنا)، ذلك لأن (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء) فتغمره طمأنينة النفس وراحة البال.

3. يتعلم من المرض أن يقنع بقضاء الله وقدره: وضرب لنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع النماذج في هذا الباب، وحققوا في ذلك أعلى الرتب، مُحققين في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (وأن تؤمن بالقدر خير من شره). فإن الله يخلق كل شيء بقدر. فيعرف أن المرض المقدر له إنما هو امتحان في رُبّ ضارة نافعة) ﴿فَسَيَأْتِيكُمْ بِهِمْ سَبْعًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: 19. وكمن من مُسرّ تلاه يُسر، وكمن من ضيق جاء بعده الفرح وإن تأخر (فكل تأخيرة فيها خيرة). والمرض مُنحة ربانية تأتي بشكل محنة "إذا أراد الله بعبد خيراً يصب منه" يعني الخير كل الخير في البلاء. يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : (إذا أراد الله بعبيده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة) رواه الترمذي وصححه. وقال الحسن البصري (رحمه الله): (لا تكرهوا البلبايا الواقعة والنقمات الحادثة، فلربّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربّ أمر تؤثره فيه عطيك) أي: هلاكك.

فالمرض سنة الحياة المطردة وقانونه الدائم ليتعلم المرء ان حياته في الدنيا امتحان دائم ويزداد إيمانه بقضاء الله وقدره، خيراً كان أم شراً (شراً في ظاهره كما يبدو لنا)، قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّهُمْ يَمِيًّا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْمَرْتَبِ وَبَشِيرِ الْأَضْرِبِ﴾ البقرة: 155. إن أفعال

(Stevens) بعد مرض التدرن الرئوي والغرق أثناء سباحته في (ماليبو) وكاد يموت Near death experience أقسم إن أنجاه الله وشفاه سوف يُسلم، وقد أسلم وغير اسمه إلى يوسف إسلام (Yusuf Islam). وقد يكتب المريض وصيته (Will) بتحويل أملاكه للجمعيات الخيرية، فمثلاً شخصية السوبرمان (Superman) مثلها الممثل كرسطوفر ريف (Christopher Reeve) بعد إصابته بالشلل الرباعي (Tetraplegia) إثر سقوطه من حصان صار يشعر بالألم غيره من المصابين بقطع الحبل الشوكي، تبرع إثرها بأمواله لتمويل البحوث عن نمو وإصلاح الأنسجة العصبية في الحبل الشوكي؛ ولعل الخلايا الجذعية كانت إحدى ثمرات هذه البحوث.

16. مرضى الأمراض المستعصي علاجها من السرطانات وأمراض القولون وشلل القلب مثلاً يشكلون مادة دسمة لتجارب الدواء والتدخلات العلاجية الأخرى لأجل إيجاد علاج مثالي يساعد الآخرين.

17. يُشجّع المريض المتماوت في الغرب للتبرع بأعضائه بعد الموت لغرض زرع أعضاء Organ Transplantation في الأحياء مثل التبرع بقرنية العين، الكلى، القلب، الكبد، الرئتين، وحديثاً زرع الوجه، شريطة ألا يكون موت المريض بسبب تسمم الدم أو السرطان (عدا سرطان الدماغ الذي يُسمح به لأنه لا يستشري عادة خارج الجمجمة). كذلك فإن المرض يستحث سحب الدم ونقله خصوصاً استخلاص مصل الدم مثلاً من مرضى التهابات الفيروسية القاتلة لإنقاذ الآخرين.

18. وكما أن المرض مصدر رزق للأطباء والصيدال والمحللين كذلك الموت بعد المرض مصدر رزق للحانونيين والحنوطيين (دفتاني الموتى) إضافة لشراء أراضي وقيعان لدفن الموتى، وفي الغرب هناك أماكن لحرق الموتى Crematorium.

#### حكمة المرض شرعياً:

1. معرفة فضل الله عليه بالصحة بفقدانها وتقدير نعمة العافية بوجودها (تُعرف الأشياء بأضدادها). كما جاء في القصيدة اليتيمة التي ألفها "دوقلة المنبجي" كمهر للزواج من (دعد) الأميرة العربية الجميلة الشاعرة (التقاء إعرابي في

